أدبُ المَرأة

تقديم لكتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (في بلادي الجميلة)

الأدب العربي – وإن شئت قلت الأدب العالمي – فقير في أدب المرأة. ومعنى الفقر هنا يقترب كثيرًا من معنى الخلو، لأنك إذا عدت إلى مراصد التاريخ ترقب منها سماوات الأدب في الشرق والغرب لا تجد في آفاقها الرُّحب إلا نجمة تلمع من حقبة إلى حقبة لمعان السُّها تظهر من بعيد لتختفي من قريب !.

وهذه الأنجم النوادر يلمعن في الأدب لا في العلم، وفي النظم لا في النثر وفي فن الرجل لا في فن المرأة !.

تستطيع إذن أن تضرب الأمثال على ضآلة الأدب الحوائي بجانب الأدب الآدمي من كل أدب في كل بلد وف يكل زمن؛ لأن هذه الظاهرة تكاد ترجع إلى الاستعداد أكثر مما ترجع إلى الاستبداد والجهالة... وفعل المقاربة (تكاد) يمنع من إطلاق الحكم على شاعرية المرأة؛ لأن المفهوم الشائع أنها انفعال مجسد وإحساس مرهف وتعبير بارز. وربما يصحح هذا المفهوم أنها على الجملة لم ترزق الخيال المجنح ولا التأمل العميق ولا التصوير المجرد ولا التفكير المستقل. إنها منذ خلقها الله من ضلع آدم مصابة بالتبعية للرجل. فالحب مثلا هو أخص صفاتها الطبيعية تشعر به أشد الشعور، ولكن حيائها الذي تأصل في طبعها من حياطة الرجل لها ورقابته عليها يمنعها من التعبير الحر عن هذا الحب فتتركه للرجل. ولو أنها تغلبت يوما على هذا الحياء بجرأة الحرية وضعف الوازع ففعلت ما فعلته الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان، أو الكاتبة العربية خولة الخوري [1] لكان ذلك بدعا في المجتمع يسترعى النظر ويستدعي الفضول.

والبغض أيضاً يساير الحب في طبيعة المرأة، فهي تبغض ولكن بغضها من نوع خاص لا يطلب التعبير العلني وإنما يكتفي بزفرة في الصدر أو بعبرة في العين. وهي لا تخطر ببالها أن تمدح لتستجدي أو تهجو لتستعدي، فإن الرجل قد آمنها من الجوع والخوف بكفه وسيفه.

---

(1) سماها جدها فارس الخوري (خولة) وأبت هي إلا أن تسمي نفسها (كوليت) !.

دنيا المرأة هي عش الزوجية الذي تحلم به وهي في رعاية الأب، ثم تستكن فيه وهي في حماية الزوج. وكل آلتها لهذا العش جمال وحب تمسك بهما الرجل، وحنان وعطف ترأم بهما على الولد. والتعبير عن هذه العواطف الطبيعية يكون بالفعل لا بالقول، وبالشعور لا بالشعر. فإذا خرجت عن دنياها الخاصة إلى الدنيا العامة فتفاعلت مع الأحداث وتأثرت بأحوال الناس حملت نصيبها من أمانة الأدب ورسالة الفكر.

في هذه النواحي العضوية والنفسية والاجتماعية يجب أن نلتمس الأسباب الجوهرية لندرة الأدب النسوي في العالم قديمه وحديثه وشرقيه وغربيه، فإن تلمس هذه الأسباب في حرمان المرأة من الحرية وتخلفها في الثقافة وانعزالها عن المجتمع لا يعلل هذه الندرة في الغرب، وإن تلمسها في انكبابها على العمل وانغمارها في المادة وانطلاقها من القيد لا يعلل هذه الندرة في الشرق. وإذا تذكرت أن هذه الندرة ملحوظة في أدب اليونان والرومان، وفي أدب الهند والفرس، وفي أدب اللاتين والسكسون، أدركت أن هذه الظاهرة المحيرة أعمق من أن تحلل في كلمة موجزة، وأوسع من أن ترد إلى سبب واحد.

خذ الأدب العربي مثلا: شغل ها الأدب العريق الزمن من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن العشرين، وطبق الأرض من أقصى بلاد الشرق إلى أقصى بلاد الغرب، ووسع آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. وأنت مع ذلك إذا عرضت عصوره الخمسة على ذاكرتك لا تجد فيها من نوابغ النساء في الأدب إلا الخنساء وتوابعها من خِرْنِق بنت بدر، وليلى بنت لكيز، وجليلة بنت مرة، في العصر الجاهلي، وإلا سكينة وليلى الأخيلية بين تسعين شاعراً في العصر الأموي، وإلا عُلية بنت المهدي في العصر العباسي، وإلا ولادة بنت لمستكفي وحمدونة في العصر الأندلسي؛ ثم تنتظر طويلا لتعثر في طوايا ذاكرتك على السيدة عائشة الباعونية تنتقل بين دمشق والقاهرة في أوائل القرن العاشر الهجري !.

نعم أوافقك على أن في الآفاق السحيقة نجيمات دقاقًا لا يدرك ضوءهن المرصد، ولكن ذلك على صحته لا ينفي الندرة ولا يغير النسبة، فإن في الرجال أيضا آلافا غمرهم الخمول فلم يقعوا في سمع الزمان وبصره لا بالرواية ولا بالرؤية.

أما ما روي عن أبي نواس من أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة، وما روي عن الخوارزمي من أنه قصد الصاحب ابن عباد بأرَّجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: إن بالباب أديبا يستأذن في الدخول. فقال الوزير: قل له قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب. فقال أبو بكر للحاجب ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أو من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال هذا أبو بكر الخوارزمي، فإن ذلك وشبهه إذا أطفأت لمعة التمويه والتهويل فيه لا يبقى تحت منه إلا تلك المقطعات التي جمعها الرواة واللغويون من شعر أعرابيات مجهولات كن ينشدنه إلهاء لأنفسهن وهن يهدهدن الطفل أو يدرن المعزل أو يرعين القطيع.

قلت إن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس، ومن بيتها إلى المجتمع، فشعرت بالشعور العام وأسهمت في الوجود المشترك، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهي المكنون في كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم. مصداق ذلك تجده في أدبنا النسوي في هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربعه الأول وربعه الثاني.

تيقظت المرأة المصرية على صيحة قاسم أمين، ولم تكد تمسح عن جفنيها فتور الكرى الثقيل الطويل حتى ضاقت بالحجاب وبرمت بالقيد وتطلعت من خصاص الأبواب وثقوب النوافذ إلى المرَاد الرحب والفضاء الفسيح والشاعر اللجب، فقررت أن تحطم القيد وتكسر الباب وتهصر الستار وتخرج إلي الدنيا لتشارك الرجل في العلم والعمل والأمل، فتفعل كما يفعل وتقول كما يقول وترجو كما يرجو. وساعدها على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة في مصر عقب الحرب العالمية الأولى. وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة. وكانت البواكير الأدبية بالحقل النسائي قد أخذت أكمامها تتشقق عنها في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فظهرت وردة اليازجية وعائشة التيمورية. وزينب فواز وأنيسة وعفيفة الشرتونيتان ولبيبة هاشم وملك ناصف ومي زيادة.

ثم اكتمل شباب الربيع واكتهل غراس النهضة فظهرت الطبقة الثانية من الأديبات وكانت أنضر عوداً وأذكى أريجا وأعلى ثمراً وأغلى فائدة. طبقة سهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد ووداد سكاكيني وفدوى طوقان وملك عبد العزيز ونازك الملائكة وروحية القليني وشريفة فتحي ولطيفة الزيات ثم جاذبية صدقي، وقد تقسمن الفنون الأدبية على حسب استعدادهن واجتهادهن، فمنهن الناقدة البصيرة والباحثة المحققة والكاتبة البليغة والأديبة الموفقة والشاعرة الرقيقة والقصصية المجيدة. ولكل واحدة منهن أسلوب في النثر أو النظم صاغته من طبيعتها ونشأتها وثقافتها واستعدادها، فيه الغموض والاختلاط، وفيه الوضوح والتميز؛ ومنه الوصفي الرصين السليم ومنه التقريري السقيم المهلهل. ولست هنا بسبيل البحث الموضوعي في هاتين الطبقتين فأبين العوامل المؤثرة فيهما، والخصائص المميزة بينهما، وأحلل الأعمال الصادرة منهما، فإن ذلك موضعه تاريخ الأدب.

إنما أنا في هذه الكلمة بسبيل كاتبة وكتاب. الكاتبة هي الدكتورة نعمات فؤاد، والكتاب هو كتابها الحادي عشر (في بلادي الجميلة)، وما أريد أن أعرض لنعمات هنا إلا من جهة الفن، ولا لفنها اليوم إلا من جهة الأسلوب. ومن يعرض لفن الكاتب وأسلوبه بالكشف والصوف والتحليل فقد عرض لكل شيء فيه. وهل الأسلوب كما قيل بحق إلا الكاتب أو الكاتبة في صورة مؤتلفة من عقله وفكره وشعوره وخلقه وذوقه وطابعه؟.

لقد كتبت نعمات ف البحث والنقد والوصف والتراجم، ولكن هذه الفنون المختلفة يؤلف بينها أسلوب واحد إذا عرفته عرفت طريقتها في هذه الفنون وحقيقتها من هذه المعاني.

إن الأسلوب مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه. تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة والموسيقية المعبرة. والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلي في صورة محسنة، وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفر منه. والأسلوب بهذا المعنى لا يكتسب بالتعليم ولا بالتقليد. وإنما هو هندسة روحية وملكة

ذهنية تتمثلان في قالب معنوي غير موصوف ولا معروف تخرج منه الفكرة والعاطفة والخيال والصورة متسقة على الوضع الذي ارتضاه الذوق الرفيع في الإنسان الذي علمه الله البيان وآتاه الحكمة.

ولعلنا إذا استثنينا النساء الشواعر في القديم والحديث لا نجد في الكاتبات العربيات من ينطبق على أسلوبهن هذا الوصف إلا كاتبتين اثنتين في هاتين الطبقتين: الأولى في الأولى مي زيادة، والأخرى في الأخرى نعمات فؤاد. ذلك لأن أسلوبها يتميز من سائر الأساليب النسوية بالشاعرية والأناقة والتنويع والتلوين والحركة. وتزيد نعمات على صاحبتها بالعمق والدقة والسلامة وتوليد المعنى من المعنى ومزاوجة اللفظ للفظ واستبطان دخائل الموضوع واستقصاء أطرافه حتى تدع فيه معنى يخطر على بال. وكل ذلك في غير تكرار ولا إملال ولا سقط، وكل ذلك في حسن نسق وجمال إيقاع من غير تكلف ولا شطط.

وموسيقى نعمات ألحان من المعنى وأنغام من اللفظ لا يبلغ بدونها الكلام ولا يقوي بغيرها الأثر. وهي موسيقى معبرة لأنها من بنية الأسلوب في باطنه لا من حلية التركيب في ظهره. وهي في بعض الكتاب والكواتب سجية وطلع، فكما لا يستطيع البلبل أن يكون غراباً ينعب ولا ضفدعا تنق كذلك لا يستطيع الفنان الصادق أن يكون فجاً على الذوق ولا ثقيلا على الأذن.

أذكر أن نعمات كانت في بعض أعمالها أمينة للجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، فكانت تكتب محاضر الجلسات بالأسلوب الرفيع تختار له اللفظ الملائم، وتنتفي له التعبير المؤدي، ولكن أعضاء اللجنة وهم من أقطاب الكتاب أنكروا عليها أن تستبدل بأسلوب الدواوين أسلوب البيان والتبيين. فآثرت أن تظل بلبلا يطرب على أن تصير غراباً ينعب، وانصرفت عن هذا العمل إلى غيره.

إن أسلوب نعمات أصيل صادق لأنه ينم عن طبيعة المرأة ويكشف عن جوهر الأنوثة. ولا يشاركها في هذه الخصيصة إلا الآنسة مي. أما غيرهما من الكاتبات النوابغ فقد تقرأ لهن الأسلوب الجزل والبيان المحكم والرأي النصيح، ولكنك تستشف من وراء ذاك محاكاة الرجل في فحولة منطقه وطريقة فنه.

أنت من نعمات بين زوج وفية وأم رءوم وأخت مواسية ومواطنة مخلصة وعاشقة للنيل تنشد على ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس، وضحكات كليوباترا، وصلوات عمرو، وغزوات صلاح الدين.

ونعمات منك بمثابة بياتريس من دانتي تطوف بك في مجالي الطبيعة ومشاهد الكون (في الورد) و (في الريف) و (في الليل) و (في المقطم) و (الهرم) و (في الفرح) كما طافت بالشاعر الإيطالي حبيبته الروحية الملهمة مجالي الفردوس ومشاهد عدن.

حاشاك أن تحمل كلامي عن نعمات على المجاملة والمهاواة لأنها امرأة وللنساء على الرجال لين القول وحسن المصانعة، أني أقول وبين يدي الدليل وأحكم وأمام عيني السند.

اقرأ على سبيل المثال مقالها في (البيت) أو في (الريف) أو في (المدرسة) أو في (الطريق) أو أي مقال شئت، ثم حاول من طريق الفن أو من طريق الذوق أن تطبق ما وصفت لك من أسلوبها على ما قرأت أنت من كلامها، فإذا لم تخرج من التصور إلى التصديق، ومن التطبيق إلى التحقيق، جاز لك أن تقول إني رجل يقول على الأدب بغير علم، ويحكم على الأدباء من غير بينة.

* * * * *

ذلك بعض القول في الكاتبة، أما الكلام عن الكتاب فقد تضمنه الكلام عن أمه. وإن الثمرة فيها سر الشجرة كله، فمهما أقل لك إن الشجرة ريانة الأصول فينانة الفروع رفافة الورق وارفة الظل حلوة الجنى، لا تجد في هذا القول على صدقة من الكفاية والرضا ما تجده في الثمرة حين تقطفها بيديك، وترمقها طويلا بعينيك، ثم تدسها في فمك، فتذوق من حلاوة العصير، وتشم من فوحة العبير، ما يقنعك أن النبعة كريمة وأن الشجرة مباركة:.

لقد حدثتك عن الكاتبة لأنها لا تتحدث عن نفسها، أما الكتاب فسأدعه وإياك ليحدثك عن نفسه.